دور رضا سعيد
في تعريب التعليم في جامعة دمشق

أ. أحمد بوبس(*)

إذا صعدنا درجات السلم المؤدي إلى مبنى رئاسة جامعة دمشق، ودخلنا بوابة المبنى، فسوف تقابلنا لوحة تذكارية، تحمل عبارة (رضا سعيد مؤسس الجامعة السورية ورئيسها) وتحتها عبارة أخرى تقول (خريجو الجامعة وطلابها يقرّون بفضله)، وتعلو العبارتين صورة وَجْه (بورتريه) لرضا سعيد. وزيادة في التكريم له أطلق اسمه على المدرج الكبير في مبنى إدارة الجامعة وعلى الشارع الممتد قبالة المدخل الرئيسي للمبنى وصولًا إلى شارع شكري القوتلي.

والواقع أنه ليس لرضا سعيد فضل واحد، بل ثلاثة أفضال، أولها تأسيس المعهد الطبي العربي بدمشق، وثانيها تأسيس جامعة دمشق، وثالثها وأهمها تعريب التعليم في جامعة دمشق، وهو موضوع محاضرتي اليوم.

كان رضا سعيد يتحسر وهو يرى لغته العربية تقبع في زوايا النسيان، لتحل مكانها اللغة التركية، ولا سيما في المدارس، وكان هو واحدًا ممن

(*) كاتب وإعلامي.

ألقى الأستاذ أحمد بوبس هذه المحاضرة في قاعة المجمع بتاريخ ٢٨/ ٩/ ٢٠٢٢م.

عاشوا هذه المعاناة، حين تلقّى تعليمه الابتدائي والثانوي والطبي باللغة التركية. لذلك كان حلمه الدائم أن تحل اللغة العربية مكان اللغة التركية في التعليم، وظل هذا الحلم يراوده حتى جاءت الفرصة المواتية لتحقيقه.

ولكن قبل أن نخوض في جهود رضا سعيد في تعريب التعليم، يحسن بنا أن نسلط الضوء على نشأته وتكوينه الثقافي الذي دفعه في هذا الاتجاه.

*** الولادة والنشأة:**

ولد رضا سعيد في الحادي عشر من نيسان عام ١٨٧٦ في بيت شديد الانضباط. فوالده الأميرال محمد سعيد كان من كبار ضباط الجيش العثماني الخامس. وعندما وصل رضا إلى سن الدراسة ألحقه والده بالمدرسة الرشيدية، وكانت مدرسة عسكرية مخصصة لأبناء الضباط بالجيش العثماني، وكان التدريس فيها باللغة التركية، لكن الوالد رغم كونه ضابطًا في الجيش العثماني، كان عربي القلب واللسان، وحرص على أن يكون ابنه مثله، فجلب له مدرِّسًا خصوصيًّا يدرسه اللغة العربية، كما جلب له مدرسًا آخر للغة الفرنسية، لقناعته أن هذه اللغة ستمكن ابنه من الانفتاح على ثقافات العالم.

وبعد أن أنهى رضا سعيد دراسته الثانوية في المدرسة الرشيدية، أرسله والده إلى إستنبول ليلتحق بالقسم الداخلي للمدرسة الطبية، وتخرج من المدرسة عام ١٩٠٢ طبيبًا ضابطًا.

وفي عام ١٩٠٩ تم إيفاده إلى باريس للتخصص في الأمراض العينية، وفي باريس التحق بمشفى (أوتيل ديو) التابع لكلية الطب في جامعة باريس. وهناك تزوج من الصيدلانية الفرنسية (مارسيل أولييه)، وبعد تخرجه عام ١٩١٢، قفل عائدًا إلى إستنبول وبرفقته زوجته مارسيل وجدتها (أوجيني).

في نفس العام نشبت حرب البلقان بين الدولة العثمانية والدول الخاضعة لها في منطقة البلقان وهي بلغاريا وصربيا والجبل الأسود وغيرها. فأرسِل رضا سعيد إلى تلك الجبهة طبيبًا ضابطاً. وفي المشافي الميدانية هناك تعرف على الدكتور مرشد خاطر. وفي عام ١٩١٣ تم نقله إلى دمشق ليعمل في المشفى العسكري (مشفى المزة العسكري حاليًّا). ثم تنقّل في عدة مواقع، إلى أن انتخب عام ١٩١٧ رئيسًا لبلدية دمشق.

*** المعهد الطبي العربي بدمشق:**

عام ١٩١٨ تعرضت دمشق لجائحة التيفوئيد، فانهمك رضا سعيد في مكافحتها، لكن المرض تسلل إلى بيته وأصاب زوجته مارسيل، وتفاقمت حالتها الصحية، فكان لا بد من نقلها إلى باريس لمعالجتها، وسافر وإياها وجدتها وابنه عدنان إلى حلب بالقطار تمهيدًا للسفر إلى باريس، لكن المنيّة وافتها في حلب، فأودع الجدة وابنه في فندق بارون ودفنها في إحدى مقابر حلب، وعاد إلى الفندق وأمضى ليلة صعبة لم يذق فيها طعم النوم إلا قليلًا، وما إن انبلج صباح اليوم التالي، حتى زاره صديقه الدكتور أحمد قدري مستشار الأمير فيصل، وأخبره برغبة الأمير في مقابلته، فقد كان الأمير ينزل في نفس الفندق، وجرت المقابلة سريعًا، وفيها طلب الأمير من رضا سعيد إنشاء معهد طبي في دمشق، وكان شرط رضا سعيد الوحيد أن يكون التدريس في المعهد باللغة العربية، وأوكل رضا سعيد مهمة وضع المناهج الطبية باللغة العربية للمعهد إلى الدكتور مرشد خاطر، الذي شكَّل فريق عمل برئاسته وقام بوضع المناهج المطلوبة وتأليف الكتب الخاصة في ذلك. ومن الأطباء الذين ضمهم فريق العمل الدكتور أحمد حمدي الخياط والدكتور شوكت الشطي والدكتور أحمد منيف العائدي والدكتور

الصيدلاني عبد الوهاب قنواتي. وبدأ المعهد عامه الدراسي الأول بتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩١٩.

وفي الواقع فإن تعريب التعليم في المعهد الطبي بدمشق، لم يكن تعريبًا لتدريس الطب فقط، وإنما كان القاعدة الأساس في تعريب التعليم الجامعي، فقد كان المعهد الطبي يضم خمس شعب، هي:

١- شعبة الطب البشري.

٢- شعبة الصيدلة.

٣- شعبة طب الأسنان.

٤- شعبة التمريض والقبالة.

٥- شعبة العلوم: وكانت تُدرّس فيها مواد الكيمياء والفيزياء والعلوم الطبيعية.

وهذه الشعب تحولت فيما بعد إلى خمس كليات هي:

١- كلية الطب البشري.

٢- كلية الصيدلة.

٣- كلية طب الأسنان.

٤- مدارس التمريض والقبالة، ثم كلية التمريض والقبالة.

٥- كلية العلوم: بعد أن أضيفت مواد الرياضيات والعلوم الجيولوجية إلى الكيمياء والفيزياء والعلوم الطبيعية.

وهذه الكليات سارت في نفس نهج المعهد الطبي في التدريس باللغة العربية.

*** مجلة المعهد الطبي:**

لم يشأ رضا سعيد أن تبقى تجربة تدريس الطب باللغة العربية حبيسة

المعهد، وإنما أراد تعريف الأوساط الثقافية والعلمية بها داخل سورية وخارجها. فقرر إنشاء مجلة طبية تابعة للمعهد الطبي تصدر شهريًّا، وهدفها ترسيخ تدريس الطب بالعربية، وتشجيع التفكير والبحث العلمي الطبي باللغة العربية. وكتب بقلمه افتتاحية العدد الأول من المجلة، أوضح فيها أهداف المجلة في ثلاث غايات هي:

١- خدمة اللغة العربية الشريفة، هذه اللغة التي بلغت بفضل علمائها وأدبائها الأقدمين شأوًا بعيدًا في العلوم والآداب.

٢- خدمة الطب والأطباء، فللطب في البلاد العربية ميدان فسيح، وللأقطار العربية أمراض خاصة بها.

٣- خدمة الشعب، لأن الشعب الذي لا تلذُّ له قراءة المقالات الطبية، ولا يروقه الدخول في ذاك العالم الخفي، يجد في هذه المجلة لذة لعقله وفائدة لصناعته.

وكان الشرط الأول للنشر في المجلة أن تكون الدراسات والأبحاث باللغة العربية. وأوكل رئاسة تحريرها إلى الدكتور مرشد خاطر. وصدر العدد الأول في شهر كانون الثاني ١٩٢٤. ونشر أبحاثه في المجلة أساتذة المعهد الطبي العربي بدمشق وأطباء من مختلف البلدان العربية مثل لبنان ومصر والعراق وفلسطين. واستمرت المجلة بالصدور حتى نيسان ١٩٤٧، لتتوقف بعدها عن الصدور بشكل نهائي.

***اعتراف عربي:**

الهاجس الكبير للدكتور رضا سعيد كان الحصول على اعتراف عربي بعملية تعريب مناهج المعهد الطبي العربي بدمشق، وطبعًا تقف مصر في أولوية ذلك. واستطاع رضا سعيد الحصول على الاعتراف على مرحلتين.

المرحلة الأولى حين شارك مع وفد من المعهد الطبي في المؤتمر الدولي لأمراض البلاد الحارة، الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٢٨، وضم الوفد الدكتور أحمد حمدي الخياط والبروفسور ترابو الأستاذ الفرنسي في المعهد الطبي. وتم عرض المؤلفات الطبية الصادرة عن المعهد الطبي في أبهاء المؤتمر. وحظيت المؤلفات بإعجاب المشاركين في المؤتمر وبشكل خاص الأطباء المصريين. ودهشوا من قدرة الأطباء السوريين على تطويع اللغة العربية لكتابة الأبحاث الطبية.

وبلغ إعجاب المصريين شأوًا دفع صحيفة المقطم المصرية أن تشيد في افتتاحيتها بهذا الإنجاز الكبير للمعهد الطبي الدمشقي، حين كتبت تقول:

(لقد جاءنا المعهد الطبي في دمشق ببرهان جديد على إمكان تعليم الطب بالعربية، وأقام لنا الحجة على صحة هذه النظرية بمجموعة من الكتب النفيسة التي ألفها أساتذة هذا المعهد، فأسدوا إلى اللغة العربية خدمة جليلة، فعسى أن يكون ما صنعه المعهد الطبي في دمشق مثالًا يُحتذى...).

في عام ١٩٣٢ ترك رضا سعيد عمادة المعهد الطبي، كي يتفرغ لرئاسة الجامعة، وتولى عمادة المعهد الدكتور أحمد منيف العائدي، وفي خطوة ثانية لاستكمال حصول المعهد الطبي بدمشق على الاعتراف به وبشهادته، ارتأى الاثنان دعوة الجمعية الطبية المصرية لعقد مؤتمرها السنوي في دمشق لإطلاع أعضائها عن قرب على تجربة تدريس الطب باللغة العربية. وبالفعل وجهت الدعوة وعقدت الجمعية الطبية المصرية مؤتمرها السنوي في دمشق خلال الفترة (١٧- ٢٢) حزيران ١٩٣٥، وترأس الوفد الدكتور علي باشا إبراهيم رئيس الجمعية، ووزير الصحة بمصر لسنوات عديدة.

الدكتور أحمد منيف العائدي كان رائعًا في المخطط الذي وضعه لإطلاع

الوفد الطبي المصري على مناهج التعليم في المعهد الطبي وطرائقه، فقد جلس الأطباء المصريون في الصفوف بين الطلاب يستمعون إلى الدروس التي يلقيها الأساتذة السوريون، كما عقدوا جلسات مع الطلاب يسبرون معلوماتهم ومقدار استفادتهم من الدروس واستيعابهم لها. وما إن انتهت أيام مؤتمر الجمعية، حتى كانت القناعة قد ترسخت لدى الأطباء المصريين بنجاح تجربة التعليم الطبي باللغة العربية، ولم يمض أسبوع على مغادرة الوفد الطبي المصري دمشق، حتى تلقى الدكتور رضا سعيد برقية من علي باشا إبراهيم رئيس الجمعية الطبية المصرية، يعلمه فيها باعتراف مصر بشهادة المعهد الطبي بدمشق، وهذا الاعتراف يعني أمرين، السماح لخريجي المعهد الطبي بدمشق مزاولة مهنة الطب في مصر، وإمكانية دراسة الطلاب المصريين في المعهد نفسه. ولم تمض فترة طويلة حتى سارت الدول العربية الأخرى على خطا مصر وأعلنت اعترافها بشهادة المعهد الطبي.

***اعتراف عالمي:**

منذ الأيام الأولى لافتتاح المعهد الطبي بدمشق، كان هاجس رضا سعيد أن تنال شهادة المعهد الاعتراف العالمي بها. ومن أجل ذلك استقدم بُعيد افتتاح المعهد ثلاثة من كبار أساتذة الطب في فرنسا للتدريس في المعهد، وهم الدكتور (لوسركل) للسريريات الجراحية والدكتور (ترابو) للسريريات الباطنية والدكتور (جود) للسريريات العصبية. وله في ذلك غاية أخرى، وهي الاستفادة من أحدث ما توصل إليه الطب في أوربا.

أما الخطوة الأهم التي خطاها رضا سعيد في سبيل الحصول على الاعتراف العالمي بشهادة المعهد، فتمثلت في أنه كان في نهاية كل عام دراسي يدعو لجنة من الأطباء الفرنسيين للحضور إلى دمشق والمشاركة في إجراء

فحوصات التخرج لطلاب المعهد (الكولوكيوم)، فيؤدي الطلاب أمام اللجنة امتحانًا نظريًّا وعمليًّا في كلِّ ما تعلموه في المعهد خلال السنوات الخمس. وكان من نتيجة ذلك أن اعترفت الجامعات الفرنسية بشهادة المعهد الطبي بدمشق، وتوالت بعدها اعترافات الجامعات العالمية بشهادة المعهد، وأصبح بإمكان خريجيه متابعة دراستهم العليا في تلك الجامعات.

*** معهد الحقوق:**

على خط مواز جاء دور المعهد الثاني، وأعني (معهد الحقوق). وكان رضا سعيد أيضًا وراء فرض التدريس بالمعهد باللغة العربية فيه، فقد كان أحد أعضاء اللجنة المكلفة بتأسيس المعهد بصفته رئيس بلدية دمشق. وافتتح المعهد عامه الدراسي بتاريخ ٢٥ أيلول ١٩١٩، ولتكون اللغة العربية لغة التدريس فيه من يومه الأول.

*** تأسيس جامعة دمشق:**

كان حلم رضا سعيد الأهم هو إحداث جامعة سورية، يكون التدريس في جميع فروعها باللغة العربية. وتكللت جهوده بالنجاح، حين صدر القرار رقم / ١٣٢/ تاريخ ١٥ حزيران ١٩٣٢عن رئيس اتحاد الدول السورية صبحي بركات الخالدي، القاضي بإحداث الجامعة السورية. وضمت معهدي الطب والحقوق والمجمع العلمي العربي، وألحق بها متحف دمشق، ثم جرى فصل المجمع والمتحف عنها، لتقتصر على معهدي الطب والحقوق.

وحتى يكون للجامعة هوية عربية واضحة، رأى رضا سعيد أن يختار لها شعارًا يُعبر عن هذه الهوية، كأن يكون الشعار قولًا مأثورًا عربيًّا أو حكمة عربية، أو شطرًا من بيت شعري عربي، وهداه تفكيره إلى شطر من الآية القرآنية الكريمة من سورة طه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ

مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. واختار منها عبارة: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾. وهذه العبارة التي غدت شعارًا لجامعة دمشق تعلو مدخل مبنى رئاسة جامعة دمشق بالخط الكوفي، وحملها شعار جامعة دمشق وخاتم الرئاسة الذي تختم به مراسلات الجامعة.

*** مدرسة الدروس الأدبية العليا:**

كان هاجس رضا سعيد الدائم أن يعزز مكانة اللغة العربية، ليس في مسألة التدريس فحسب، وإنما على الصعيد الرسمي والعلمي والثقافي والاجتماعي، بعد أن كانت اللغة الفرنسية هي المسيطرة لاسيما في الجانب الرسمي. فعمل على إحداث مدرسة للآداب تتولى تدريس اللغة العربية بشكل أساسي، إضافة إلى الأدب العربي والثقافة العربية. وتكللت جهوده باستصدار القرار رقم (٣٦٨) تاريخ ١ آب ١٩٢٨، وبتوقيع رئيس مجلس الوزراء تاج الدين الحسني، وكان وزير المعارف وقتها محمد كرد علي. وحملت المدرسة أولًا اسم (مدرسة الدروس الأدبية العليا)، ثم تحول إلى (مدرسة الآداب العليا) ثم إلى كلية الآداب.

أما الأقسام التي ضمتها المدرسة فهي:

١ – اللغة والآداب العربية.

٢ – الفلسفة.

٣– اللغة والآداب الفرنسية.

وهذه الكلية هي اليوم كلية الآداب التي غدت حصناً من حصون اللغة العربية. وبذلك وضع رضا سعيد القاعدة الأساس في تعريب التعليم الجامعي، والذي سارت عليه الكليات التي أحدثت بعد ذلك، لتغدو اللغة العربية لغة التدريس والعلم في الجامعة السورية التي تحمل الآن اسم جامعة دمشق.

*** الثانوية (البكالوريا) السورية:**

لم تقتصر جهود رضا سعيد على تعريب التعليم الجامعي، بل امتدت لتشمل التعليم ما قبل الجامعي. ففي عام ١٩٢٤ تولى منصب وزير المعارف في الحكومة التي شكلها صبحي بركات الخالدي، واستمر فيها من تاريخ ٢٠ كانون الأول ١٩٢٤ وحتى تاريخ ٣ كانون الأول ١٩٢٥. وهو عندما قبل المنصب الوزاري، لا لينخرط في العمل السياسي، بل كان يطمح إلى إجراء إصلاحات في التعليم الثانوي. وفور توليه مهام الوزارة عكف على إحداث الثانوية (البكالوريا) السورية، ووضع أسسها ونظامها، لتكون بديلًا عن الثانوية (البكالوريا) الفرنسية التي كانت مفروضة علينا من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي، وكانت اللغة الفرنسية فيها تنافس اللغة العربية بل تفضلها، إضافة إلى أن مناهجها كانت زاخرة بالثقافة الفرنسية والتاريخ الفرنسي.

أما في الثانوية (البكالوريا) السورية الجديدة فقد أصبحت اللغة العربية هي الأساس، وتم وضع مناهج جديدة، فأصبح تدريس الأدب العربي والثقافة العربية هو الأساس فيها، كما تم استبدال تدريس التاريخ الفرنسي ليحل محله التاريخ العربي. وبذلك توج رضا سعيد جهوده في تعريب التعليم ليشمل التعليم الجامعي وما قبل الجامعي، الذي تنعم به سورية الآن بفضل جهوده الذي يستحق عليه كل الإجلال والتقدير.

*** التقاعد والرحيل:**

في عام ١٩٣٦ بلغ رضا سعيد الستين من عمره، فتقدم بطلب لإحالته على التقاعد، بعد أن حقق كل ما كان يرغبه، واطمأن على حسن سير العمل في الجامعة. لكن طلبه قوبل بالرفض، وأمام إصراره على التقاعد قُبل طلبه، وتفرغ لعيادته التي كان هجرها لسنين كثيرة. لكن الجامعة والمعهد الطبي

ظلا في قلبه، فكان يسأل عنهما مَنْ تولى المسؤولية فيهما من طلابه.

ومنذ مطلع عام ١٩٤٥ بدأت صحته بالتدهور، ليرحل بتارخ الثامن والعشرين من تشرين الأول ١٩٤٥. فتم تنكيس العلم السوري المرفوع على السارية فوق مبنى رئاسة الجامعة، حزنًا على رحيل مؤسس الجامعة السورية ورئيسها لسنوات طويلة.

* * *

المصادر والمراجع

- كتاب (رضا سعيد مؤسس الجامعة السورية – رجل لكل الأقدار) – الدكتور صباح قباني – جداول للنشر والتوزيع – بيروت ٢٠١١.
- كتاب (تاريخ الجامعة السورية – البداية والنمو ١٩٠١ – ١٩٤٦ – أول جامعة حكومية في الوطن العربي) – عبد الكريم رافق – مكتبة نوبل – دمشق ٢٠٠٤.
- كراس (نبذة عن تاريخ الجامعة السورية) – دمشق (لم يحمل الكراس تاريخ إصداره، وإنما عليه ختم مكتبة الجامعة الذي يحمل تاريخ عام ١٩٤٥، أي إن الكراس صدر في ذاك العام أو قبله).
- كتاب (٣٧٨/ ج س / م) – الجامعة السورية (ذكرت رمز الكتاب لأنه لا اسم له، فقدْ فَقَدَ عددًا من صفحاته الأولى وغلافه. ورمز الكتاب المذكور إنما هو الرمز الذي أعطته إياه المكتبة المركزية في جامعة دمشق التي أعارتني – مشكورة – الكتاب والكراس. ويتضمن هذا الكتاب القوانين والمراسيم المؤسسة للجامعة السورية والناظمة لعملها

ما بين عامي (١٩٢٣-١٩٣٣). ولم يذكر عليه تاريخ إصداره أيضًا، وأقدم تاريخ ذُكر فيه، جاء في عبارة / جرد عام ١٩٦٥. وأغلب الظن أنه صدر في نفس العام الذي صدر فيه الكراس آنف الذكر).

- كتاب (الحكومات والوزارات السورية من ١٩١٨ حتى ٢٠١٠) – إعداد وتوثيق مازن يوسف الصباغ – دار الشرق للطباعة والنشر – دمشق ٢٠١٠.

* * *